النص من القراءة البلاغية إلى القراءة اللسانية
" إستراتيجية التأويل"

أ/ **دهيلي نسرين– جامعة بسكرة**

تمهيد:

لقد أحدثت الثورة الصناعية الأوروبية في القرن التاسع تطورا نوعيا في حياة الإنسانية جمعاء فتسببت في إيقاظ الوعي العلمي في النفوس، وبعث القلق المعرفي في العقول، مما أدى إلى تطور العلوم التجريبية منها والتجريدية وساهم في إشباع حيرة الإنسان وفضوله الذي رافقه منذ يومه الأول، فاحتاج إلى التعبير, وتساءل عن أشكاله وتفطن إلى الصوت, ثم تساءل عن تمثيله فتنبه إلى الرسم، ومن ثم الكتابة, التي عمل على تطويرها وتحديث وسائلها, للاستعانة بها كأساس تنهض عليه شتى العلوم الإنسانية وتعتمده للحفظ والتعبير والتواصل, خاصة العلوم التجريدية التي تعد مادة الأديب الطيعة ووسيلته المرنة, من حيث أنه يبثها أفكاره ومشاعره وتجارب حياته ثم ينمذجها في أشكال مختلفة شعرية أو نثرية؛ وكلها نصوص تمثل النتاج الصافي لمكونات العقل البشري, فإذا كانت الكتابة هي الفضاء الخام للنص[1]، والنّص هو فضاء توالدي لشيء آخر سمي بالقراءة والتي بدورها تحتضنه منذ ولادته وتخرجه من الظل لتبعث فيه النور والحياة[2]، فما هو الشكل الكتابي الذي يمكن أن يطلق عليه لفظة نّص؟ وكيف يمكن حصر هذا الأخير في مجال محدد لنسلط عليه فعل القراءة ؟ وكيف كانت قراءته قديما وحديثا؟.

كل هذه الأسئلة وغيرها وعلى ما تبدو عليه من البساطة، هي نتيجة روافد لا متناهية من المعرفة يصعب القبض على منبعها, كما يستحيل الوصول إلى منتهاها، وإذا ما أردنا الخوض في غمار الإجابة عنها إذ بنا نفتح أبواب مصطلحات عملاقة تبلورت في صور علوم ونظريات قائمة بذاتها مثل: علم النّص، علم البلاغة، نظريات القراءة

ونظريات التأويل وغيرها، مما يصب في بحر النّص الإنساني وما يدور في فلكه إبداعا وتلقيا.

وفيما يلي سنحاول إيراد بعض المفاهيم التي قد تميط اللثام عن بعض الغموض وتكون لنا عونا في موضوعنا إ ن شاء الله.

1- النّــص:

لقد ارتبط النّص بالعلوم الإنسانية ارتباطا رحميا، جعل محاولة عزله عنها مستحيلة، فهو الكيان الوحيد الذي تدور حوله موضوعاتها وأبحاثها وتتجلى فيه تخصصاتها، فما يدرسه علم النفس في النّص مثلا لا يهتم به علم الاجتماع بل يتناول النّص من منظور اجتماعي وكذلك بقية العلوم، [لذلك وجب علينا الوقوف على المعنى اللغوي لمصطلح نّص –الذي قد نشترك فيه مع بعض العلوم الأخرى– ثم نتخصص في تعريفه اصطلاحا].

" جاء في لسان العرب , مادة: ن- ص°- ص′:

النّص رفعك الشيء، نّص الحديث ينصّه نصّا: أي رفعه، وكلما أظهر فقد نصَّ ومن ذلك المنصّةُ، و نصّ الشيء منتهاه، وله صلة بالاستقصاء، فالنّصّ عند الفقهاء نصُّ القرآن ونصّ السنة، أي ما دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام"[3]

أما في الجانب الاصطلاحي فيختلف تعريف النّص حسب الجهة التي تتبناه، فعلماء النّص يرونه متتالية جمل" شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات (روابط) أو على الأصح بين عناصر هذه الجمل علاقات تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر وارد في جملة سابقة أو جملة لاحقة، أو بين عنصر وبين متتالية برمتها سابقة أو لاحقة"[4]

وهذا التعريف وإن لامس بعض شروط النّص إلاّ أنه لم يستوفها، حيث أهمل شرط الطول والقصر كما أسقط شرط الحدّ (أي البداية والنهاية)، فهناك من العلماء من يرى في الكلمة نصّا كالعنوان مثلا، أو جملة واحدة كقولهم: سنحدد النّص هنا بوصفه سلسلة لسانية محكية أو مكتوبة وتشكل وحدة تواصلية، ولا يهم أن يكون المقصود هو متتالية من الجمل، أومن جملة وحيدة أو جزء من جملة ليس بنية مقطعية ملازمة، ولكنه وحدة وظيفية تنتمي إلى نظام تواصلي[5].

ومن هذا المفهوم نستطيع القول أن النّص هو نتاج لساني منطوق أو مكتوب، أبدعه مؤلف واستلمه المتلقي لاستهلاكه بالقراءة والتحليل، ويعيش النّص قائما بذاته، في معزل عن مبدعه منذ ولادته مفتوحا أمام جميع قرائه، وإن كنا لا نربطه بنية التواصل ذلك أن المبدع أثناء عملية الكتابة يعيش حالة من المخاض بين الوعي واللاوعي التي لا تؤهله للتفكير في: ماذا يكتب؟ أو كيف يكتب؟ ولمن هذه الكتابة؟ لكن هذا لا يبعد النّص عن مثلثه المتفاعل الأضلاع، وهي النّص: كقاعدة للمثلث، والمبدع ثاني الأضلاع – وأولها في النشأة– والمتلقي ثالثها وأسمكها، ذلك أننا أمام مجموعة من المتلقين تختلف نظرتهم إليه –أي للنّص– كما تختلف استجابتهم له خاصة بتقادم الزمن وامتداده.

2- قراءة النّص قديما:

لقد اهتم العلماء منذ القديم بالنّص، وكان حارسه الأمين المكلف به هو علم البلاغة وهو حارس وحيد يملك زمام الأمر، والبلاغة في اللغة الوصول والانتهاء، يقال: بلغ فلان مراده إذا وصل إليه ومبلغ الشيء منتهاه[6] وتقع في الاصطلاح (أي البلاغة) وصفا للكلام والمتكلم فقط دون الكلمة لعدم السماع"[7]، وفي هذا الجزء الأخير نظر، لاستثنائه الكلمة من البلاغة لأننا نجد "السكوت يسمى بلاغة مجازا وهي في حال لا ينجع فيها القول ولا ينفع فيها إقامة الحجة "[8]، فإذا قبلنا أن يكون السكوت من البلاغة والإشارة كذلك فلما نستثني الكلمة منها وهي أولى بها –أي بالبلاغة– فمن

الكلمات ما هي كحد السيف، إضافة إلى أن الكلمة وسيلة المتكلم للكلام ودونها لا وجود لهذه العملية التواصلية.

وبناءا على ما تقدم تصبح عناصر البلاغة هي "لفظ ومعنى وتأليف للألفاظ يمنحها قوة وتأثيرا وحسنا، ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقفه وموضوعاته، وحال السامعين، والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم"[9].

إن هذا الدور المنوط بالبلاغة كان ذا قيمة بالغة الأثر في صون الكلام والحفاظ على قوته مع جزالته وحسن سبكه وهذا ما انعكس على نصوص القدماء وخطاباتهم، لكن مع التطور الهائل للعلوم في العصر الحديث فقدت البلاغة هذه المكانة, وأصبحت تشكل عائقا يأسر النّص داخل قوقعة الشكل ومحسناته وكان لزاما عليها الانفتاح، والسماح لعلوم أخرى بمساندتها في دور الرقيب على النّصوص الإبداعية.

إلا أنّ ذلك لا يحرمها من فضل الأسبقية في قراءة النّص الأدبي ورعايته، وليس بيننا من ينكر عليها ذلك فـــ"الإسهام النقدي التراثي يحتكم إلى المنهج في كشوفاته النظرية والتطبيقية (ولا سيما البلاغة)، إلاّ أن تشكلات المنهج وحدوده الإجرائية كانت مرتبطة بحدود العصر المعرفية آنذاك، وسهل أن ندرك انفتاح النقد القديم إجرائيا على الرافد المنطقي اليوناني"[10]، رغم حرصهم على صهر تلك المعارف في بوتقة البلاغة، في حين نجد معارفنا اليوم بروافدها المختلفة قد انفصلت عنها وأصبحت قائمة بذاتها، دون نفي خاصية التأثير بينها جميعا.

إنّ هذه الإضاءة البسيطة حول البلاغة والنّص، قادتنا إلى مفاهيم جديدة سجلت توحد البلاغة بالنقد الأدبي، خاصة بعد أن جاهرت البلاغة العربية في أن مهمتها الأولى هي إنتاج النّص الأدبي المتميز[11]، والتعامل بشكل مزدوج مع حدي الإنتاج والاستهلاك (المبدع والقارئ)، فالأدب نص ومبدع، ولكن النّص كوجود مبهم هو حلم معلق، ولا يتحقق هذا الوجود إلاّ بالقارئ، الذي تأتي أهميته، كفاعلية أساسية لوجود الأدب، والقراءة منذ أن وجدت هي عملية تقرير مصيري بالنسبة للنّص، ومصير النّص[12].

فلم يعد النّص الأدبي مجرد واحة يلقي القارئ بجسده المنهك على عشبها طلبا للراحة؛ بل أصبح يلاحقه ويلازمه كهاجس لا يستطيع الظفر بثماره إلاّ بعد لأي، و لم يعد دوره محصورا في الاستجابة للنّص استجابة حرة ترضي ظمأه الجمالي، ونزوعه إلى التلقي الشخصي الممعن في كثافته وفرديته، بل أصبح القارئ طاغية جديدا، تشكل استجابته للنّص نسيج الموقف النقدي برمته وأصبحت القراءة اتجاها نقديا مؤثرا[13]، فهي أداة لفك ملغزات النّص الأدبي للاقتراب منه إما بالتأويل، وإما بالاستعمال و لم تبرح هذه القراءة تتطور وأجهزتها تتعقد ورؤاها تتعدد، حتى حملت المنشغلين في الحقل الأدبي على الطموح إلى تأسيس نظرية عامة متخصصة ومتداولة في عالم النصوص تهتم بالقراءة، فاكتسبت معاني أخرى إضافة إلى التي كانت عليها بمعية البعد التأويلي الذي أصبح عنصرا فاعلا في هذه العملية.

II النّص والقراءة في الدرس الحديث:

إنّ القراءة كفعل إنساني أعمق بكثير من أن تكون ضم حروف بعضها إلى بعض في شكل مكتوب لتكون متتالية حروف(كلمات)، أو متتالية كلمات(جمل) تشكل بدورها متتالية تتجسد في شكل كليّ هو النّص، "إنها عملية غاية في التعقيد تقوم على أساس تفسير الرموز المكتوبة أي الربط بين اللغة والحقائق"[14]، في محاولة لفك شفرات النّص، هذا الأخير الذي تربطه حركة دائمة مع متلقيه عن طريق فعل القراءة، إننا نفترض مسبقا وجود نصّ خلقه مبدع في فترة معينة نشأت بينهم جميعا علاقة حميمة متغيرها الوحيد هو القراءة ومن ثمة "ليس هناك أحد ينكر مباشرة بأن للقراء والقراءة وجودا فعليا فحتى أولئك الذين ألحوا كثيرا على استقلالية الأعمال الأدبية وعلى عدم أهمية تجاوبات القراء فإنهم أنفسهم يقرؤون الكتب ويتجاوبون معها"[15].

إنّ القراءة المقصودة بالحديث هنا هي القراءة النقدية أو النقد في عمومه، إلاّ أن هذه الصفة لم تكتسبها القراءة بين عشية وضحاها، وإنما مرت بمراحل عديدة كانت تعرف فيها القراءة بأنها عملية تقوم على إيجاد علاقة رابطة بين نوعين من الرموز المكتوبة والمنطوقة المستخدمة في عملية التعبير عن المعاني الذهنية.

ويفهم من هذه أن عناصر القراءة ثلاثة: المعنى الذهني، اللفظ الذي يؤديه، ثم الرمز المكتوب، والبدء بالرمز والانتقال منه إلى المنطوق (لغة الكلام) يسمى قراءة والعكس يسمى كتابة، وترجمة الرمز إلى المعاني قراءة سرية، وترجمتها إلى ألفاظ مسموعة قراءة جهيرة[16]، وهذا هو المفهوم البسيط الذي كان سائدا حول القراءة والملاحظ أنه لم يشر إلى القارئ بوصفه طرفا في العملية التواصلية وعصبا هاما في فعل القراءة وكأن الكاتب يؤلف لنفسه، وقد أسهم الاشتغال بالنّصوص الدينية ومحاولة فهمها وتفسيرها في ترسيخ هذا التصور وانتقال التعامل به إلى غيره من النّصوص الأدبية، دون أن يتخلى أحد النقاد أو الشارحين عن الاعتقاد بأن هنالك دائما مضامين ثابتة وحقائق لا نقاش فيها بخصوص المعاني النّصية، وإذا كان هذا الأمر لا مراء فيه بخصوص النّصوص الدينية، فإن مدار المناقشة والاختلاف هو إمكانية توصل الإنسان إلى كامل الحقيقة، أي قدرته على استنفاذها[17]، ولتدارك هذا القصور تعرف القراءة أنها "إدراك يعتمد على الربط بين الرمز المكتوب وسابق خبرات القارئ"[18]، لأن الكتابة في أصلها هي ترجمة المعاني الذهنية إلى ألفاظ تمثلها حروف مكتوبة، تضاف إليها خبرات القارئ التي تؤهله لمعرفة الحقيقة التي تعنيها تلك الرموز، وبالتالي تكتمل حلقة فعل القراءة المتعدي التي يمكن أن نمثلها جنبا إلى جنب مع تعدد القراءات كما في الشكل (1):

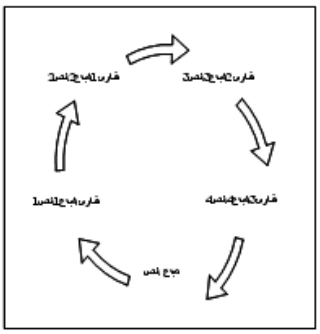

حلقة فعل القراءة

(تعدد القراءة)

الشكل (1)

إن هذه الأفعال اللاانهائية حول النّص منه وإليه جعلت التساؤلات تكثر حول كيفية هذه القراءة (القراءات) لمعرفة طبيعة العمليات العقلية التي يقوم بها الإنسان في أثناء القراءة، مما أدى إلى اتساع مفهومها لتشمل النقد فتصبح أسلوبا من أساليب النشاط الفكري في حل المشكلات فهي ليست عملية متميزة، بل هي نشاط فكري متكامل[19]، وهي ليست عملية اختيارية بقدر ما هي ضرورة لإثبات صفة الإبداع للمبدع (أو نفيها) و كذا إثبات الجمالية للنّص (أو إلغائها)، فالنّص "كسول في الأساس لا يفيدنا بجميع التفاصيل وهكذا تنتشر على مساحة النّص ثقوب وفجوات تكثر أو تقل بحسب طبيعة النّصوص وتستدعي من القارئ أن يستعين بمخزونه لسدها واصلا بذلك ما انقطع من النّص ومنتصبا مشاركا في صنع النّص"[20]، الذي ليس بمقدوره أن يقول لنا شيئا، دون الإيحاء الصوتي أو البصري أو الخيالي وغيرها من المتلفظات المرتبطة قبل أي شيء بفضولنا نحن القراء، "بمعنى أن القارئ المفترض مهما كان حذقه وفطنته لا يقول دائما ما يقوله النّص المدروس وإلاّ ما الفائدة من تكراره؟"[21] (أي النّص).

ونخلص من هذا أن القراءة تتوازى مع الكتابة في مرحلة أولى ثم تتقاطع معها في مرحلة ثانية وعندما يحدث تعدد للقراءات —سواء من نفس القارئ أو من عدة قراء— تنحرف عن المعنى التفسيري البسيط إلى الدلالة الكامنة والتي تتحكم بها خبرة القارئ وثقافته،مما يخلق تقاطعات عمودية بين الكتابة والقراءة كما في الشكل الآتي[22]:

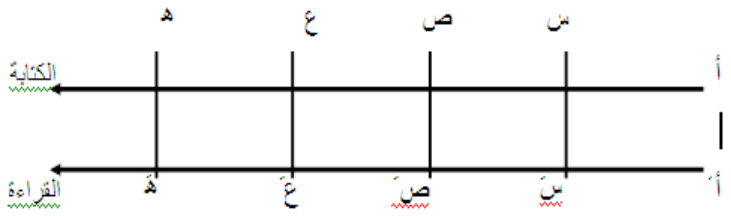

(الشكل 2)

تمثل الحروف (س،ص،ع،ه) مجتمع المتلقين الذين يؤدي احتكاكهم بمحور الكتابة إلى تغير في حالاتهم الفكرية حسب درجة استيعاب النّص وتملكه، وهذا يؤدي بالضرورة إلى تعدد القراءات فتتكون مجموعة القراء (سَ، صَ، عَ، هَ)، مع "احتمال حصول أكثر من قراءة في آن واحد بفعل تعدد نسخ الشكل المحرض للقراءة وذلك بقطع النظر على طريقة القراءة ونوع مستواها ومكانتها[23].

إن هذا التعدد في القراءات يقودنا إلى التساؤل عن أنواع القراءة فهي ما دامت متعددة نفترض في التعداد الاختلاف ومن ثم تصبح للقراءة تقاسيم عدة لاعتبارات مختلفة منها:

أولا: من حيث الشكل وطريقة الأداء تقسم القراءة نوعين: القراءة الصامتة أو السرية والقراءة الجهرية.

ثانيا: من حيث أغراض القارئ، القراءة السريعة العاجلة، و يقصد بها الإهتداء بسرعة إلى شئ معين، قراءة تكوين فكرة عامة، القراءة التحصيلية، قراءة لجمع المعلومات، قراءة للمتعة الأدبية، القراءة النقدية التحليلية.

ثالثا: أنواع القراءة من حيث التهيؤ الذهني للقارئ، والقراءة من هذه الناحية نوعان قراءة للدرس و قراءة للاستمتاع[24].

يضاف إلى ذلك أنواع أخرى كالقراءة الاستنساخية، والقراءة النقدية الاستنطاقية، وقد نلحق بها نوعا جديدا من القراءة أين يمكن للنّص أن يقرأ نصوص (ما اصطلح عليه بالتناص) " فدخول هذه النّصوص إلى نص جديد ينتج عنه بالضرورة تحويل في دوالها ومدلولاتها وكأن النّص يعيد قراءة النّصوص التي دخلت في تكوينه ويقوم بتحويلها لفائدته الخاصة[25] وهنا يتجسد النّص كقارئ محترف ولكنه من نوع خاص جدا بحيث لا يتدخل في العمل الإبداعي بقدر ما يمثل هذا العمل .

بقي أن نشير: أن هذا التعدد في أنواع القراءة ومستوياتها، والقراءة نفسها كفعل قائم بذاته، منوط ومرتبط ارتباطا لا فصال فيه بالفاعل المجسد في هيئة القارئ، والقارئ: هو المتلقي للعمل الأدبي، وهو العضو النابض في هذه العملية حيث قد تنقطع

صلة النّص بصاحبه بمجرد إنتاجه ويبقى هذا النّص راكدا لا حياة فيه إلى أن يجيئه قارئ يبعث فيه الروح بعد أن كان وجودا عائما.

وكما اهتمت الدراسات بالقراءة وقسمتها كان للقارئ نصيبه من التقسيم، خاصة من قبل أعضاء مدرسة "كونستونس" الألمانية "فولفغانغ أيزر"، و"هانز روبيرت ياوس"، و"ميشال ريفاتير" وغيرهم.

وهنا نجد أن تقسيمات أيزرقد طغت على بقية التقسيمات نوعا ما، ويرجع ذلك إلى إيمانه بفاعلية القارئ و دوره في بناء النّص ومن ثم حاول أيزر "أن يمنح القارئ القدرة على منح النّص سمة التوافق أو التلاؤم، فوجد أن التوافق ليس معطى نصيا، وإنما هو بنية من بنيات الفهم التي يمتلكها القارئ ويبنيها بنفسه، بقصد تحقيق الاستجابة والتفاعل النّصي الجمالي، ومن هنا افترض أيزر أن النّص فجوات تتطلب من القارئ ملأها بالقيام بالعديد من الإجراءات التي تستند لا إلى مرجعيات خارجية وإنما إلى مقارنة بنية النّص ببنية الفهم عند القارئ"[26]، وبذلك تعددت أنواع القراء عنده إلى:

1- **القارئ الأعلى**: ارتبط هذا النوع من القراء بريفايتر أكثر من غيره وهو يمثل مجموعة من المخبرين الذين يلتقون دائما عند نقطة محورية في النّص، والقارئ الأعلى مثل أداة استطلاع تستعمل لاكتشاف كثافة المعنى الكامن في النّص[27]، "إن لأحكام القيمة التي يصدرها ذلك القارئ الأعلى صدى لها مسبباتها في النص فلا وجود للأثر دون المثير الضروري لقيام أسلوبه خاصة بذلك النّص"[28].

2-**القارئ المخبر**: وهذا النوع من القراء يخبرنا بوجود أحداث أسلوبية في النّص [29]، و للقيام بهذه المهام لابد على القارئ أن يكون:

أ- متكلما كفئا [كفؤا] باللغة التي يبني بها النص.

ب- متمكنا من المعرفة الدلالية لتلك التي يستحضرها المستمع الناضج عن مهمة الفهم.

ج- وتكون له كفاءة أدبية[30].

3-**القارئ المقصود**: وهو القارئ الذي يقصده المؤلف و يوجه له الكلام من خلال النص و هكذا فالقارئ المقصود باعتباره قاطنا في النص لا يمكن أن يجسد فحسب

مفاهيم و تقاليد الجمهور المعاصر بل أيضا رغبة المؤلف سواء في الارتباط بهذه المفاهيم أو الاشتغال عليها[31]؛ وبالاكتشاف هذه المقاصد تكون مردودية العملية التواصلية بين المبدع والقارئ عالية نسبيا.

4- **القارئ الضمني**: وهو" نموذج عقلي يسمح لنا أن نفسر كيف أن النّص الخيالي ينتج أثرا ويأخذ معنى"[32]، وهو بنية نصية تتوقع حضور متلق دون أن تحدده بالضرورة[33].

5- **القارئ النموذجي**: وهذا النوع " لديه ثروة لغوية إذ لا يفتح القاموس في كل مرة باحثا عن معاني الكلمات بل يرجع إلى قاموسه الخاص وحتى إلى موسوعته الفردية زيادة على معارفه اللغوية يمتلك كذلك معارف نحوية ومخزونا تركيبيا كي يتعرف على وظيفة الكلمات داخل سياق الجملة؛ وبذلك يحّين القارئ النموذجي النّص في كل مرة، ويطلق أيكو على هذه المعارف اسم (الموسوعة القرائية)، وهي مجموعة ضمنية متضمنة لكفاءة أسلوبية—بلاغية توارثها عن أجيال سابقة وعن قراءات ماضية"[34].

إنّ أيزر بإشارته إلى هؤلاء القراء المختلفين، لا يقصد مجرد السرد وإنما يتساءل "عن انفعال القارئ بعد عملية القراءة، ومعنى هذا أن الدلالة لديه ليست شيئا يبنى بشكل قبلي وإنما هي حدث يبنى باعتباره تجربة نعيشها من خلال التفاعل مع الأثر"[35]، هذا التفاعل الذي يرتبط بعناصر أخرى تحدد قيمته من مثل معرفة القارئ، قدرته على الفهم واستنطاق النّصوص، بعد نظره، وغيرها من الملكات والمكتسبات.

كل هذه الخلفيات تسهم بشكل أو بآخر في توليد الدلالة؛ وإعطائها بعدا آخر، هو البعد التدليلي أوالتأويلي، الذي يعد حاسما في تحديد نوع المعرفة الإنسانية حيث يصبح النّص "عبارة عن شبكة من الشفرات يقوم القارئ بفكها، مثلما يفعل الصيدلي إذ يقرأ وصفة طبية مشفرة، لذا لابد من مشاركة القارئ الفعالة لاكتمال النّص"[36] هذه المشاركة التي لا تكون إلاّ عن طريق التأويل.

III التأويل وعلاقته بالقراءة والنّص والقارئ:

التأويل شرعا هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة، ويترتب عن هذا وجود معنيين للنّص أحدهما المعنى الحرفي، والآخر المعنى الروحي[37]، وهذا المفهوم هو نفسه "الذي تحدث عنه ريفاتير وأولته كريستيفا عناية خاصة، ونشعر مع إيكو أنه مهما بدا منفتحا على تعددية قراءة النّصوص فإنه لم يكن يريد أن يفرط بسهولة في فكرة المعنى الحرفي"[38] لحساب المعنى التأويلي الفكري الذي يحدده القارئ بناء على ثقافته وتأثير المرسلة فيه مستندا على "عمليات الفهم والتفسير والتحليل"[39].

فإذا اعتبرنا أن المعنى الحرفي هو الدلالة المعجمية—أو السطحية— للنّص يكون المعنى التأويلي هو الدلالة الإيجابية لتلك العلامة (اللفظ)؛ وبالتالي يصبح التدليل فعلا يستثمر الأطراف الثلاثة للعلامة:

أ/ العلامة في حد ذاتها_اللفظ أو النص ككل.

ب/ الموضوع أو الدلالة السطحية التي يجسدها المعنى الأول.

ج/التدليل أو المعنى الثاني أو الدلالة العميقة التي يستخرجها القارئ.

ونستطيع أن نمثل المعنى الحرفي والمعنى التأويلي بالطريقة الآتية:(الشكل 3)

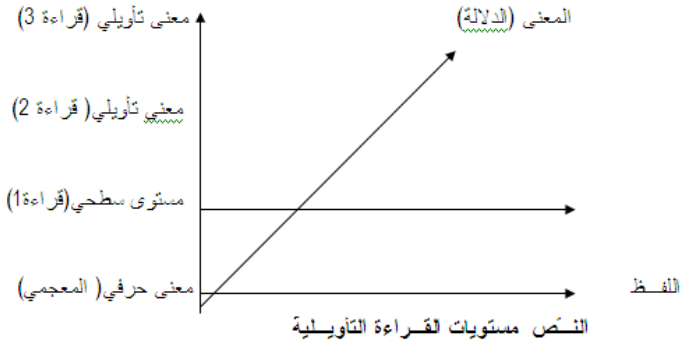

(الشكل 3)

النـــّص مستويات القـــراءة التأويـــلية

وكما نعلم فإن عمق القراءة لا يتأتى إلاّ بالفهم العميق المؤسس لأفق التأويل والذي يتخذ فيه نص ما قيمته؛ فالتأويل حوار مع النّص المبدع، يجعل منه ذلك الحوار موضوع تشريح وتفكيك، وهو بذلك لا يقرّ بالنّص النموذج، وعليه فالتأويل عملية مشروطة تحكمها اللغة أداة التأويل، وكذا ثقافة المؤول وآفاقها، والتأويل بهذا المعنى ليس وليد اللحظة الراهنة إذ نجده ضارب في الأعماق خاصة إذا تعلق الأمر بالدرس العربي القديم أين انفتحت دراساتهم على الأعمال الإبداعية، ولا سيما الشعر بحيث وصلت قراءاتهم لنّص معين إلى أكثر من ثلاثين قراءة، كما حدث مع شعر المتنبي وحماسة أبي تمام وفي النثر مقامات الحريري(40)، هذا عن الدراسات القديمة وإدراكها أهمية فتح النّص على دلالات متعددة من خلال آلية التأويل.

أما الدراسات الحديثة " فيقوم مفهوم التأويل فيها على إعادة ما نملكه من رصيد معلوماتي، وبلورته في سياق التجربة لإعطاء سلطة التحرر من قيود خلق الصّور التي تحفز الانعكاس الإدراكي لمعنى التأويل"(41)، هذا عن عامة التأويل أما خصوصيته، فنعني بها كونه أداة فاعلة تسهم في قراءة النّص الأدبي، الذي يمثل مدار الدراسات الألسنية، وقد اكتسب هذا المعنى على مرحلتين كلاسيكية وحديثة.

أما الأولى فكانت سائدة في القرن التاسع عشر، والتأويل فيها ليس إلا مجرد " إسقاط للمفاهيم الذاتية التي يتملكها المتلقي على بنية النّص"(42) ويخضعها لسلطته مما قد يعرض النّص للتشويه، خاصة إذا تعلق الأمر بالقارئ غير المتمرس، ومن ثم فهذا النوع من التأويل لا يخدم النّص بقدر ما يسيء إليه من خلال ربطه بالجانب النفسي، وعزله عن السياقات الأخرى اللغوية أو الخارج لغوية، فهو تأويل " يتشبث بمقصدية المتكلم"(43).

أما الدراسات الحديثة فترى في التأويل الأدبي النّصي؛ خلق جديد للنّص بحيث تصبح مهمة خالقه —القارئ— إثارة السؤال وتحريك التراكم المعرفي لينتصر على الثوابت فيه، فتقوم صياغته في بنية فهمه على متغيرات القراءة التي تخلق فيه الجديد وتزيح عنه الثوابت لكشف المكنونات فيه، وهو ما يجعل القارئ يتجدد ويتغير بتغير

القراءات، وشيء طبيعي أن تتغير القراءة نحو تطوير الفهم(44)، إلى حد يمكن معه أن تتسع القراءة التأويلية إلى إدراك أسئلة النّص بفعل تجاوز حدود اليقين(45) دونما مساس بجوهر النّص؛ إذ يجب أن يراعي المؤول قبول الرمز" في سياقه الذي وضع فيه أن يؤول كذلك، لكن هذه القابلية لا تصبح إلا بتدخل القراء فيه بممارسة فعل التلقي، وهذا يعني أن المعنى والقيمة الأدبيين ليس [ليسا] موجودين في الأدب، ولا في المتلقين، ولكن في نقطة التلامس بين القراء والنّص الأدبي، وهذا جوهر نظرية التلقي والتأويل الحديثة(46)، كما أن هذه القابلية لا يصح أن تترك هكذا مفتوحة كي لا تراوده نفسه —القارئ— إلى بنائه حسب أهوائه ورغباته الكامنة في لا وعيه.

فيجب إذن أن تكون عملية التأويل، عملية منطقية يحكمها النّص في حدود ما ترمي إليه بنيته إضافة إلى السياقات المختلفة المولود فيها مع بعض المرونة في الرؤيا والتخيل، لكي تصبح تأويلاتنا ذات قيمة وقراءتنا التأويلية أهدافها، التي قد نحصرها في: إضاءة المعهود (النّص) والكشف عنه وفق جسر يربط الماضي بالحاضر على ضوء ما يقتضيه الراهن، للتعبير عن تجليات الحياة الاستشرافية وفي سياق حقول التوافق بين السبب والمسبب، وفق تجاوز النّصوص، وفي سياق الفهم للدخول في عالم الخلق"(47).

كل هذا دون الخروج عن الأطر التي تجعل من تأويلاتنا مقبولة، والتي لا تحدها مقاييس "الرؤية الموجهة لمعرفة الحقيقة وإنما تعتمد بالأساس على سياق منطق الباطن الذي لا تحده مفاهيم مسبقة تحيط بالمتلقي لتؤثر فيه، بل غياب الطريق يصبح شرطا أساسا للمعرفة غير المتحيزة لدى القارئ الذي يسلم سلطانه إلى العالم المجهول في أثناء عملية القراءة"(48).

إنّ هذه المفاهيم المختلفة للعملية التي يتم بها التأويل تضعنا أمام سؤال بالغ الأهمية: أين يقع التأويل وعلى أي عنصر في النص يمارس سلطته؟ و"التأويل عموما قد وقع الحديث عن وقوعه على اللفظ والمعنى "(49)، بحيث أن الألفاظ يؤتى بها للتعبير عن دلالات معينة، وفي حال وجود ألفاظ تدل على أبعاد معنوية أخرى—دلالات— غير التي وضعت لها في دلالتها المعجمية، تصبح الألفاظ مؤولة والمعاني كذلك، وقد يمس هذا ما يسمى في علم الدلالة بالتغير الدلالي، هذا التغير الذي لا يكون دفعة واحدة، بل

على عدة مراحل، نصطلح عليها بمستويات التأويل، والتي يمكن حصرها في ثلاث مستويات:مستوى الفهم، ومستوى التأويل، ومستوى الاستعمال(50).

إن هذه المستويات على ما يبدو عليها من بساطة إلا أنها تتم وفق عملية معقدة تولد لدينا الدلالة المؤولة، فالقارئ "حين يفعل ذلك لا يقصد إلى بناء صورة لهذه الظاهرة أو تلك، وإنما يفعل ذلك عن حالة إنسانية خاصة، يخضع فيها خضوعا مطلقا لكل حركة من حركاتها، لكل انفعال من انفعالاتها، وكيفما تكون هذه الحالة الإنسانية تظهر اللغة وهي تحمل إشاراتها الدالة مستجيبة لنداءات غامضة تأتي من كل جهة، من أزمنة متباعدة أو متقاربة، من أمكنة محددة وغير محددة ثم إنها تأتي وهي ذات طابع معقول أو غير معقول، أو بشكل مؤتلف أو مختلف"(51)، وهذا ما يمثل صميم العملية النقدية.

إنّ النقد بجمعه بين هذه الأقطاب الثلاثة يكون قد أرسى لنفسه أسسا علمية جعلت منه الحارس الأمين للنصوص والضامن لحركة تكاثرها (من خلال تعدد القراءة)، لذلك ظهرت مناهج نقدية كثيرة هادفة إلى الإحاطة بكنه النصوص منها: البنيوية، السيميولوجيا، التفكيكية، التداولية، الأسلوبية، اللسانيات النصية، وغيرها من المناهج الخلاقة للنصوص والنافثة للدينامية في روع النّص.

المصادر و المراجع

(1) ينظر:عبد الجليل مرتاض، في عالم النّص والقراءة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ط2، [د ت]، ص 33 .

(2) المرجع نفسه: ص 34.

(3) جمال الدين بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، [ط3]،1993.

(4) محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،[ط1]،1991،ص 13.

(5)-منذر عياشي : العلامتية وعلم النص, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, المغرب ,ط1 ،2004، ص 119-120.

(6) ينظر: السيد احمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص28.

(7) المرجع نفسه: ص29.

(8) المرجع نفسه: ص31.

(9) بشري موسى صالح: نظرية التلقي أصول وتطبيقات المركز العربي, الدار البيضاء, المغرب, ط1, 2001, ص13

(10) ينظر: عبد القادر عبد الجليل، الأسلوبية ثلاثية الدوائر البلاغية، دار الصفاء، للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1، 2002، ص80-81

(11) ينظر: عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية ، قراءة نقدية لنموذج أنسني معاصر مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1،1985، ص75.

(12)ينظر: فوزي العيسي، النّص الشعري وآيات القراءة، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطية، مصر، [د ط]،2006، ص7. وينظر: علي جعفر العلاق، الشعر والتلقي دراسات نقدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن ،ط1،2007، ص 64.

(13) حسن شحاتة: تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر،ط3، 1996، ص101 .

(14) فولفغا نج أيزر : فعل القراءة (نظرية جمالية التجاوب في الأدب)، ترجمة وتقديم حميد لحمداني والجلالي الكدية، منشورات مكتبة المناهل، الدار البيضاء، المغرب، [دط]، [دت]، ص11.

(15) ينظر: عبد العليم إبراهيم، في طرق التدريس الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، [دت]، ص57.

(16) حسن عبد الباري عصر الاتجاهات الحديثة لتدريس اللغة العربية في المرحلتين الإعدادية و الثانوية مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، [دط]،2000 ،ص134.

(17)حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب ،ط1 ،2003،ص5.

(18) ينظر: حسن شحاتة، تعليم اللغة العربية بين النظرية و التطبيق، ص102.

(19)محمد ناصر العجمي:الظاهر و الخفي في النص القصة نموذجا، الفكر العربي المعاصر، دار الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع(88 ، 89)، (ماي،جوان)،1991، ص110.

(20)عبد الجليل مرتاض: في عالم النّص والقراءة ،ص66.

(21) المرجع نفسه، ص64

(22) المرجع نفسه: ص64-65 .

(23)عبد العليم إبراهيم : في طرق التدريس الموجهة الفني لتدريس اللغة العربية، ص61.

(24) حميد لحمداني: القراءة و توليد الدلالة، ص25.

(25) بشرى موسى صالح : نظرية التلقي أصول وتطبيقات ،ص49.

(26) فولفغانغ إيزر: فعل القراءة المبادئ الأولية لنظرية جماليات التجارب ،ص22

(27) ينظر: فريدة بوساحة، القارئ وبنية النّص، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، الجزائر ، ع(19)، نوفمبر 2006، ص279-280.

(28) المرجع نفسه: ص279.

(29) فولفغانغ إيزر : فعل القراءة المبادئ الأولية لنظرية جماليات التجارب ،ص25-26

(30) المرجع نفسه: ص 28.

(31) محمد مفتاح : دينامية النّص، المركز الثفافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، [ط2]،1990، ص50.

(32) المرجع نفسه: ص30.

(33) فريدة بوساحة، القارئ و بنية النّص ،ص284.

(34) المرجع نفسه: ص286 .

(35) أحمد الطريسي: النص الشعري بين الرؤية البيانيةو الرؤيا الإشارية، الدار المصرية السعودية، القاهرة، مصر، [دط]،2004، ص126.

(36) عصام خلف: الاتجاه السميولوجي في نقد الشعر، دار فرحة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، [دط]، [دت]، ص46.

(37) غريب اسكندر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، المجلس الأعلى للثقافة، [دط]، [دت]، ص 142-143

(38) حميد لحمداني : القراءة وتوليد الدلالة، ص 72.

(39) الحبيب شبيل : من النص إلى سلطة التأويل، مجلة الفكر العربي المعاصر، دار الإنماء القومي، بيروت، لبنان، العدد(88-89)، (ماي، جوان) 1991، ص72.

(40) أحمد الطريسي: النّص الشعري بين الرؤية البيانية والرؤيا الإشارية،127 .

(41) المرجع نفسه،130 .

(42) بشرى موسى الصالح: نظرية التلقي أصول و تطبيقات، ص49.

(43) حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة، ص78.

(44) عبد القادر فيدوح: دلائلية النّص الأدبي دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، وهران، الجزائر،[ط1]،1993، ص24.

(45) غريب اسكندر: الاتجاه السميائي في نقد الشعر العربي، ص147.

(46) حميد لحمداني :القراءة وتوليد الدلالة، ص87.

(47) عبد القادر فيدوح: دلائلية النّص الأدبي دراسة سيميائية للشعر الجزائري، ص25-26.

(48) المرجع نفسه: ص30.

(49) الحبيب شبيل : من النّص إلى سلطة التأويل، ص91.

(50) ينظر حميد لحمداني: القراءة وتوليد الدلالة، ص74.

(51) أحمد الطريسي: النص الشعري بين الرؤية البيانية و الرؤيا الإشارية، ص 66.